فصل من كتاب يصدر قريبا

الدور العمومي للكُتّاب والمثقفين

يصدر عن دار الاداب في بداية تشرين الثاني (نوفمبر) آخر اعمال المثقف الكبير الراحل إدوارد سعيد، بعنوان **الانسانية والنقد الديموقراطي**، وقد نقله إلى العربية فواز طرابلسي. في ما يلي الفصل الأخير من الكتاب، وفيه يتوخ سعيد تنظيره للمثقف النقدي ـ وبخاصة في عصر العولمة.

إدوارد سعيد

ترجمة: فواز طرابلسي

عام ١٩٨١، دعت مجلة **ذي نايشن** إلى مؤتمر للكُتّاب في نيويورك، مكتفيةً بالإعلان عن الحدث، تاركةً مسألةَ تعريفِ الكاتب وسببِ أهليّته لحضور المؤتمر مفتوحةً، أو هكذا فَهمتُ الخطةَ المتّبعة. فكانت النتيجة أنّ مئات من البشر لبّوا الدعوة، محتشدين، حتى كادوا يبلغون السقفَ، في قاعةٍ للرقص في فندق في وسط المدينة بمانهاتان. كان القصد من المناسبة ردّ جماعات المثقفين والفنانين على حلول عهد رونالد ريغان. وأَذْكر من المداولات أنّ نقاشًا حاميًا وطويلاً أُثير حول تعريف الكاتب، على أمل أن يجري إسقاطُ عضوية البعض، أو إجبارُهم على المغادرة، بصريح العبارة. وكان ذلك لسببين: الأول من أجل تقرير مَنْ له ومَنْ ليس له الحقُّ في التصويت؛ والثاني من أجل تشكيل اتحادٍ للكتّاب. لم ينجَز الكثيرُ في مجال خفض الأعداد والسيطرة عليها؛ فالحشد الحماسي الكبير ظلّ ببساطة ضخمًا وعاصيًا، لاسيَّما أنّه كان واضحًا تمامًا أنّ كلّ مَنْ جاء بصفته كاتبًا مناهضًا للريغانية بقي بصفته كاتبًا مناهضًا للريغانية.

وأَذْكر بوضوح أنّه عند نقطة معينة، قدَّمَ أحدُهم اقتراحًا معقولاً يقضي بأنّ نتبنّى ما سُمِّي التعريف السوفياتي للكاتب، أيْ أنّ الكاتب هو كلُّ مَنْ يقول عن نفسه إنّه كاتب. وأعتقد أنّ الأمر استقرّ عند هذا الحدّ. ومع أنّ «الاتحاد الوطني للكتّاب» أنشئ، فإنّه قَصَرَ نشاطاتِه على الشؤون المهنية التقنية، مثل المطالبة بعقود موحّدة وأكثر عدالةً بين الناشرين والكتّاب. وكذلك أنشئ

«مؤتمرُ الكُتّاب الأميركيين» لتناول الشؤون السياسية بالتحديد، إلاّ أنّه حُرِف عن مساره من قِبل أُناس أرادوا تسخيرَه عمليًا لخدمة هذه الأجندة السياسية أو تلك من الأجندات التي لا يتحقّق التوافقُ عليها.

منذ ذلك الحين، طرأ تحوُّلٌ ضخمٌ على عالم الكتّاب والمثقفين، وبات تعريفُ الكاتب أو المثقف أكثرَ إرباكًا وأصعبَ تحديدًا. ولقد أدليْتُ بدلوي في هذا الموضوع في سلسلة «محاضرات رايث» عام ١٩٩٣، بعنوان «صُوَر المثقف.» ولكنّ تحوُّلات سياسية واقتصادية أساسية استجدّتْ منذ ذلك الحين، وخلال كتابتي هذه الدراسة، دفعتْني إلى مراجعة الكثير من أفكاري السابقة وتوسيع البعضِ منها. يقع في صميم تلك المتغيّرات ازديادُ التوتر المستَدام بصددِ ما إذا كان يُمْكن الكتّابَ والمثقفين أن يكونوا بأيّ حال من الأحوال «لاسياسيين،» بحسب التسمية الدارجة. فإذا كان الردُّ بالإيجاب، فكيف وبأيّ مقدار؟ والصعوبة التي يعانيها الكاتبُ والمثقف الفرد بسبب ذلك التوتر تتأتّى، ويا لَلْمفارقة، من أنّ النطاقيْن السياسي والعمومي قد اتّسعا اتساعًا عظيمًا بحيث باتا عمليًا بلا حدود. خُذْ بالاعتبار أنّ عالم الحرب الباردة الثنائيَّ القطب قد أُعيد تشكيلُه وتذويبُه بعدة أشكال مختلفة تتضافر كلُّها لتوفير منوّعاتٍ لامتناهية، أولاً في موقف المثقف أو موقعه الجسدي والمجازي، وثانيًا في انفتاح إمكانية لَعِبِه أدوارًا متفارقة ـ هذا إذا أمْكن القولُ إنّه لا يزال لفكرة «الكاتب أو المثقف» ذاتِها أيُّ معنى أو وجودٍ متماسكٍ أو كيانٍ مستقلٍ قابلٍ للتحديد أصلاً. ولا شكّ أنّ دور الكاتب الأميركي في حقبةِ ما بعد ١١ أيلول قد ضاعَفَ من أهميةِ ما يُكْتَب «عنا» إلى درجة ضخمة.

العديد من الناس لا يزالون يستشعرون الحاجة إلى اعتبار الكاتب/المثقف كائنًا يجب الإنصات إليه

ومع ذلك، وبالرغم من أنّ فيض الكُتب والمقالات التي تقول بأنّ المثقفين لم يعد لهم وجود، وإنّ نهايةَ الحرب الباردة، وانفتاحَ الجامعات الأميركية خصوصًا على أفواج من الكتّاب والمثقفين، وولادةَ عصر التخصُّص، وتسويقَ وتسليعَ كلّ شيء في الاقتصاد المتعولم حديثًا، قد أطاح ببساطة بتلك الفكرة القديمة والرومنطيقية بعضَ الشيء عن الكاتب/المثقف المستوحِد، فلا تزال أفكارُ وممارساتُ الكتّاب/المثقفين المتعلّقةُ بالحيّز العام تَحْمل الكثيرَ من الحياة.[1] وما الدور الذي لعبه هؤلاء في الفترة الأخيرة في معارضة الحرب الأنكلو ـ أميركية في العراق (كما في تأييدها، مع الأسف) إلاّ الدليلُ البليغُ على ما أقول.

في ثلاث أو أربع لغات ثقافية متمايزة كليًا، هي التي أعْلَم شيئًا عنها، تبدو أهميةُ الكتّاب والمثقفين بارزةً، وهي بالتأكيد حاضرةٌ فيها على نحو كاسح. ويعود ذلك جزئيًا إلى أنّ العديد من الناس لايزالون يستشعرون الحاجةَ إلى اعتبار الكاتب/المثقف كائنًا يجب الإنصاتُ إليه بما هو مُرْشِدٌ في الحاضر المربِك، وأيضًا بما هو قائدُ جناحٍ أو تيّارٍ أو مجموعةٍ تَسْعى إلى المزيد من القوة والنفوذ. وإنّ مصدر كلتا الفكرتيْن عن دور المثقف في فكر غرامشي غنيٌّ عن التوضيح.

أما في العالم العربي الإسلامي، فالمفردتان المستخدمتان لـ intellectual هما «مثقف» و«مفكّر»؛ الأولى مشتقة من «ثقافة» culture (أيْ أنّه رجل ثقافة) والثانية مستمدة من «فِكْر» thought (أيْ أنّه رجلُ فكر) في كلا الحاليْن تزداد هيبةُ المعنييْن وتتعزّز بالمقارنة المضمرة مع أهل السلطة، الذين يُعَدّون الآن على نطاق واسع فاقدي المصداقية والشعبية، أو تُعْوزهم الثقافةُ والفكر. وهكذا ففي الفراغ الأخلاقي القائم، الذي أوجدتْه سلالاتٌ من الحكومات الجمهورية ، أخذ العديدُ من الناس يتوجّهون إلى المثقفين الدينيين والعلمانيين (وأكثرُهم لا يزال من الرجال) بحثًا عن قيادةٍ لم تعد توفِّرها السلطةُ السياسية، على الرغم من أنّ الحكومات قد جهدتْ لاستيعاب المثقفين ليلعبوا دورَ الناطقين بلسانها. على أنّ البحث عن المثقفين الأصليين مستمرّ، وكذلك النضال.

في عالم الناطقين بالفرنسية، لا تنفكّ مفردةُ intellectuel تَحْمل معها ترسُّبًا من ترسُّبات الحيّز العمومي، حيث كانت شخصياتٌ راحلةٌ مؤخّرًا مثل سارتر وفُوكو وبُورديو وآرون تناقِش وتَطْرح أفكارَها أمام جمهور واسع جدًا في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، عندما كان معظمُ شيوخ الفكر هؤلاء قد رَحَلوا، رافقَ غيابَهم مقدارٌ من الخبث والارتياح؛ فكأنّ هذه البطالة المستجدّة وفّرتْ للعديد من صغار القوم فرصةَ الإدلاء بدلائهم لأول مرة منذ زولا [2] واليوم، مهما يبدو واضحًا أنّه إحياءٌ لسارتر، ومع ظهور بورديو ـ أو بالأحرى

---

١ ـ سوف أربط المصطلحيْن موقّتًا لغرض التيسير، ثم أنتقل إلى تفسير الأسباب التي تَدْفعني إلى ذلك بعد برهة

٢ ـ الإشارة هنا إلى الروائي الفرنسي الكبير إميل زولا (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢)، الذي شَكّلَ القدوةَ والمثالَ لتدخّل الكاتب في الحيّز العمومي، في موقفه من قضية العسكري درايفوس التي كَتَبَ فيها بيانَه الشهير **إنّي أتّهم** (١٨٩٨) وقد اضطرّتْه ردودُ الفعل العدائية على موقفه إلى اللجوء منفيًا إلى بريطانيا (المترجم)

أفكاره ـ على صفحات **لوموند** أو **ليبراسيون** بمعدّل مرةٍ كلّ يومين تقريبًا، إلى يوم وفاته، انفتحتْ شهيةُ العديد من الناس على المثقفين العموميين، كما أعتقد من بعيد، يبدو النقاشُ حول السياسات الاجتماعية والاقتصادية نقاشًا حيويًا إلى حدّ كبير، وهو ليس بقدْرِ الأحادية التي تَغْلب عليه في الولايات المتحدة

في كتاب **كلمات ـ مفاتيح**، قدّمَ رايموند وليامز، بإيجازٍ بليغ، حقلَ القوة لدلالات كلمة «مثقف،» السلبية في معظمها، وهو ربما خيرُ ما خَرَجَ من إنكلترا كنقطةِ انطلاق لاكتناه الدلالات التاريخية للكلمة وقد عملتْ مؤلَّفاتٌ لاحقةٌ ورائعةٌ لستيفان كوليني وجون كاراي وآخرين على المزيد من التعميق والتشذيب لحقل الممارسة التي يتموضع فيه الكتّابُ والمثقفون أما وليامز، فقد أشار إلى أنّ الكلمة، بُعَيْدَ منتصف القرن العشرين، اكتسبتْ مجموعةً من الارتباطات يتصل العديدُ منها بالإيديولوجيا والإنتاج الثقافي والقدرة على التنظيم والتعلُّم المنهجَيْن وهذا ما يشير إلى أنّ استخدامها في اللغة الإنكليزية قد اتّسع ليَكْتسب بعضَ المعاني والاستخدامات الدارجة في الإطاريْن الفرنسي والأوروبي عامةً ولكنْ، كما في الحال الفرنسية، فإنّ المثقفين من جيل وليامز قد غادروا المسرح (وليس إريك هوبزباوم، الخصبُ الإنتاج والتعبير على نحوٍ لامعٍ شبهِ عجائبي، إلاّ الاستثناء النادر للقاعدة). وإذا كان لنا أنْ نَحْكُم بناءً على بعض وَرَثتِه في الـ **نيو ليفت ريڤيو**، فإنّ فترةً جديدةً من الاستكانة الفكرية اليسارية قد حلّتْ ونظرًا إلى تنكُّر «حزب العمّال الجديد» بحماس لماضيه وانضمامه إلى الحملة الأميركية لإعادة تنظيم العالم، فإنّ ثمة فرصةً مستجدةً لتقدير الدور الانشقاقي للكاتب الأوروبي فالمثقفون النيوليبراليون والثاتشريون مايزالون في مواقعهم السابقة (أيْ في حالة صعود)، وهم يحظَوْن بعدد متزايد من المنابر الصحفية التي يتحدّثون منها دعمًا للحرب في العراق أو انتقادًا لها

على أنّ كلمة «مثقف» أقلُّ استخدامًا في الإطار الأميركي ممّا هي عليه في الساحات السردية والسجالية الثلاث الأخرى التي ذكرتُ. ومن أسباب ذلك أنّ النزعة الاحترافية والتخصُّصية شكّلت المعيارَ للإنتاج الفكري أكثر منها في الساحات العربية والفرنسية أو الإنكليزية البريطانية. إنّ عبادةَ الخبير لم تَحْكم عالمَ السرد قَدْرَ ما تَحْكمه الآن في الولايات المتحدة الأميركية، حيث المثقفُ الساعي إلى التأثير في القرار السياسي يستطيع أن يَشْعر أنّه يحيط العالمَ بأسره بنظرته الشاملة أما السبب الآخر فهو أنّه بالرغم من أنّ الولايات المتحدة تعجّ بالمثقفين الجاهدين لملء موجات الأثير والطباعة والفضاء السيبرنيتيكي بهَذْرهم، فإنّ الحيّز العمومي مشغول بمسائل السياسة والحكم، كما باعتبارات القوة والسلطة، إلى درجة أنّ مجرد فكرة المثقف غير المدفوع بشغفه إلى المنصب ولا بالطموح للوصول إلى إذن أحد رجالات السلطة يَصْعب التمسُّك بها لأكثر من ثانيةٍ أو ثانيتيْن. فالربح والشهرة مهيِّجان قويان وخلال سنوات عديدة جدًا من ظهوري على التلفزيون أو إدلائي بمقابلات صحفية، لم تَصْدف مرةً لم أُسأل فيها: «ما الذي يجب أن تَفْعله الولاياتُ المتحدة، برأيك، بالنسبة إلى هذا الموضوع أو ذاك؟» أعتبر ذلك مؤشّرًا إلى كيفية انبثاث فكرة السلطة في قلب الممارسة الفكرية خارج الجامعة وأَسمحُ لنفسي بأنْ أضيف أنّني لا أجيب أبدًا على مثل هذا السؤال، من حيث المبدأ

ومع ذلك، فالصحيح على نحو كاسح أنّ الحيّز العمومي الأميركي لا يشكو نقصًا في المثقفين الساعين إلى التأثير في القرار السياسي، والمرتبطين عضويًا بهذا الحزب أو ذاك أو بفئة ضاغطة أو مصلحة خصوصية أو قوة أجنبية فعالَمُ المصانع الفكرية في واشنطن، والحوارات التلفزيونية المختلفة، والبرامج الإذاعية التي لا عدّ لها ولا حصر، ناهيك عن آلاف الصحف والمجلات والدوريات الصادرة في المناسبات ـ كلُّ هذه تَشْهد بما فيه الكفاية على مدى تشبُّع الخطاب العامّ بالمصالح والسلطات والقوى التي يَفُوق حجمُها الخيالَ، من حيث المدى والتنوُّع، اللهم إلاّ إذا كانت تلك الكلية تَدُور مركزيًا مدارَ القبول بدولة نيوليبرالية ما بعد «دولة الرعاية،» غير مسؤولة تجاه المواطنين ولا تجاه البيئة الطبيعية وإنّما تجاه بنْيةٍ شاسعةٍ من الشركات المتعولة التي لا تحدّها حواجزُ ولا تَنْتظمها سياداتٌ وما القدرة العسكرية الكونية للولايات المتحدة إلاّ جزء عضوي من تلك البنْية الجديدة فإزاء مختلف الأنظمة والممارسات المتخصِّصة التي يَمْتلكها الوضعُ الاقتصاديُّ الجديد، وإزاء إدارة حكومية تكاد أن تَخْتزل فكرتَها عن الأمن القومي بالحرب الاستباقية، بدأْنا نتبيّن ملامحَ مشهدٍ استعراضي يُرينا كيف أنّ هذه الأنظمة والممارسات (العديدُ منها جديد، والعديدُ جرى تجديدُه من بقايا النظام الإمبريالي الكلاسيكي) قد تجمّعتْ لتكوين مساحة جغرافية هدفُها الأوحدُ هو الطردُ التدريجيُّ للفاعلية الإنسانية والتغلُّبُ عليها (راجعْ كمثال عمّا أفكّر فيه، إيف ديزيلاي وبرايان ج غارث في كتابهما **التعامل مع الفضيلة: التحكيم التجاري الدولي وبناء نظام قانوني عابر للقوميات**). ويجب ألاّ يضلّلنا الهذرُ الصادرُ عن طوماس فريدمان، ودانيال يرجين، وجوزيف ستانسلاس، وسائرِ الأفواج التي احتفلتْ بالعولمة، فيَدْفعنا إلى الاعتقاد بأنّ النظام نفسَه هو خيرُ مآل للتاريخ الإنساني. كما لا يجوز أن تَحْجب ردةُ فعلنا ملاحظةَ ما تستطيع تقديمَه «العولمةُ من تحت» ـ حسب التسمية التي أَطْلقها ريتشارد فالكْ على النظام العالمي ما بعد معاهدة ويستفاليا ـ من حيث الطاقةُ والتجديدُ الإنسانيان وإنْ يكن بطريقةٍ أقلّ إغراءً. فثمة اليوم شبكةٌ متّسعةٌ إلى حدّ كبير من

المنظّمات غير الحكومية التي أُنشئتْ لمعالجة حقوق الأقليات والإنسان، وقضايا النساء والبيئة، وحركات التغيير الديموقراطي والثقافي. ومع أنّه ما من واحدة من هذه تستطيع أن تشكّل بديلاً من النشاط أو التعبئة السياسيين، خصوصًا من أجل الاعتراض على الحروب غير المشروعة ومحاولةِ وقفِها، فإنّ العديد منها يجسّد مقاومةً للأمر الواقع العولمي الزاحف.

ومع ذلك، كما حاجج ديزيلاي وغارث (في مقالة بعنوان «إمبريالية الفضيلة»)، فإنّ مصادرَ تمويلِ العديد من المنظّمات غير الحكومية تجعلُها أهدافًا قابلةً للاستيعاب من قِبَلِ ما أسماه الباحثان «إمبريالية الفضيلة،» فتصير تَعْمل كمُلْحقات للشركات المتعدِّية القومية ولكُبْريات المؤسسات من أمثال مؤسسة فورد، ولمراكز الفضيلة المدنية العاملة على استباق حدوث تغييرات أو انتقادات أكثر جذريةً للافتراضات الراسخة وقَطْعِ الطريق عليها

خلا ذلك، فإنّ المقارنة بين عالم الخطاب الأكاديمي الفكري، في نضاليته المغلقة، العاجّةِ بالرطانات والتي لا تهدِّد أحدًا، وبين ما كان يمارسه الحيِّزُ العموميُّ المحيط، أمرٌ ليس موقظًا للوعي وحسب بل يكاد أن يكون مخيفًا أيضًا لقد كان ماساو ميوشي رائدًا في دراسة هذه المقارنة، خصوصًا من حيث تهميشُها دراسةَ الإنسانيات. وإنّي أرى أنّ الفصل بين النطاقيْن، الأكاديمي والعمومي، أكبرُ في الولايات المتحدة منه في أيّ مكان آخر، مع أنّ مرثيّة بيري أندرسون لليسار، وفيها أعْلن عودتَه إلى تسلُّم إدارة تحرير مجلة **نيو لفت ريڤيو**، تُوضح بما لا يترك مجالاً للشكّ أنّ كعبة من تبقّى من الأبطال البريطانيين والأميركيين والأوروبيين، هي، خلا استثناء واحد، حاسمةٌ في كونها أوروبية المركز، تضمّ أكاديميين حصرًا ويكاد هؤلاء أن يكونوا، في جماعهم، من الذكور. وإنّي أَعْجبُ ألاّ يأخذ أندرسون في الاعتبار مثقفين غيرَ أكاديميين من أمثال جون پيلجر والكزندر كوبرن، أو شخصيات أكاديمية وسياسية أساسية أمثال تشومسكي وهاورد زِنْ والراحل إڤْبال أحمد وجرمان غرير، أو شخصيات متنوِّعة من أمثال محمد سيد أحمد وبيل هوكس وآنجيلا دايڤيس وكورنلّ وَسْت وسيرج حاليمي وميوشي وراناجيب غُوها وپارثا تشاترجي، ناهيك عن حشد مثير للإعجاب من المثقفين الإيرلنديين يضمّ شيموش دين ولوك غيبونز ودكلان كيبرد إضافةً إلى العديد غيرهم، وجميعُ هؤلاء لن يَقْبل المناحةَ الرسميةَ على ما يسمِّيه [أندرسون] «الفوزَ النيوليبراليَّ العظيم.»

إنّ عبادة الخبير لم تحكم عالمَ السرد قدرَ ما تحكمه الآن في الولايات المتحدة الأميركية

تنطوي الجِدّةُ العظيمة والفريدة لترشُّح رالف نادر في الانتخابات الرئاسية الأميركية للعام ٢٠٠٠ على أنّ مثقفًا معارضًا أصيلاً كان يخوض المعركةَ على أقوى منصب منتخب في العالم، مستخدِمًا خطابًا وخططًا تَهْتك الأساطيرَ وتَنْزع الحُجُبَ السحريةَ، وموفِّرًا ـ خلال ذلك ـ لناخبين شديدي التذمُّر معلوماتٍ بديلةً معزَّزةً بوقائعَ وإحصائياتٍ دقيقة فكان بذلك يسير على العكس تمامًا من أنماط الغموض والشعارات المملّة والتضليل والهياج الديني التي يرعاها مرشَّحو الحزبيْن الرئيسييْن، ممهورةً بتواقيع أجهزة الإعلام ـ والمفارقة أنّها ممهورةٌ أيضًا بتوقيع العالم الأكاديمي الإنسانوي من خلال همومه. والأكيد أنّ موقف نادر النضالي يدلّ على أنّ الاتجاهاتِ المعارضة في المجتمع المتعولم لاتزال بعيدةً كلَّ البعد عن أن تنتهي أو تُهْزم راقِبْ أيضًا انبعاثَ النزعة الإصلاحية في إيران، وتعزيزَ النزعة الديموقراطية المعادية للعنصرية في أنحاء مختلفة من أفريقيا، وغيرهما؛ ناهيك عن نضالات نوفمبر ١٩٩٩ في سياتل ضدّ منظمة التجارة العالمية، وتحرير جنوب لبنان، وحملات الاحتجاج غير المسبوقة ضدّ الحرب في العراق على مدى العالم كلّه،.وما إلى هنالك. وسوف تَطُول اللائحةُ وتختلف من حيث النبرة (لو أنّنا شرحناها كليًا) عن نزعة المهادنة التعويضية التي يبدو أنّ آندرسون يَقْترحها. من حيث النوايا، كانت حملةُ نادر مختلفةً أيضًا عن حملات خصومه في أنّها هَدَفتْ إلى توعية المواطنين ديموقراطيًا على الطاقة غير المستخدمة من أجل المشاركة في موارد البلد، بدلاً من مجرد استثارة الجشع أو مجرد الموافقة على ما يجري تمريرُه على أنّه سياسة

بعد أنْ دَمَجْتُ كلمتيْ «مثقف» و«كاتب» منذ برهة، يَصلُح الآن أن أبيّن لماذا وكيف ينتمي واحدُهما إلى الآخر، على الرغم من الأصل والتاريخ المنفصليْن لمفردة «كاتب » فالكاتب، في الاستخدام اليومي للُّغاتِ والثقافاتِ التي أَلِفْتُها، هو الكاتب الإنسان الذي يُنْتج الأدب، أيْ هو الروائي والشاعر والكاتب المسرحي. وأعتقد أنّه يصحّ عمومًا القولُ إنّ الكتّاب، في كافة الثقافات، يحتلّون موقعًا على حدة، ولعلّه أكثرُ تبجيلاً من موقع المثقفين ذلك أنّه تُسبَغ على الكتّاب هالةُ الإبداع وقدرةٌ تكاد آن تكون مقدّسةً على الابتكار (وقد تكون أحيانًا قدرةً نبويةً من حيث مداها ونوعيّتها) وهو ما يُحْرَمُ منه المثقفون الذين يصنَّفون، قياسًا إلى الأدب، في مرتبة النقّاد، وهي مرتبةٌ دونيةٌ وطفيليةٌ بعضَ الشيء. (ثمة تاريخ طويل من الهجوم على النقّاد بما هم وحوش بغيضون نيّقون لا يجيدون أكثرَ من الشكوى وممارسة الفصاحة المتحذلقة). على أنّه خلال السنوات الأخيرة

من القرن العشرين، ازداد اكتسابُ الكاتب لصفات المعارضة المنسوبة إلى المثقف من حيث الجهرُ بالحقيقة في وجه السلطة، والشهادةُ على الاضطهاد والعذاب، ورفعُ صوت التمرّد أثناء النزاعات مع السلطات. إنّ براهينَ إدغام واحدِهما بالآخر يجب أن تضمّ قضيةَ سلمان رشدي بكلّ مضاعفاتها، وتأسيسَ العديد من برلمانات الكتّاب ومؤتمراتهم المتخصّصة بقضايا التعصُّب والحوار بين الثقافات والنزاعاتِ الأهلية (كما في البوسنة والجزائر) وبحريةِ التعبير، والرقابة، والحقيقة والمصالحة (كما في جنوب أفريقية والأرجنتين وإرلنده وسواها)، والدورَ الرمزيَّ للكاتب بوصفه مثقفًا يَشْهد على تجربة بلد أو منطقة، بما يَمْنح تلك التجربةَ هويتَها العمومية المدوَّنة إلى الأبد في الأجندة السردية الكونية. ولعلّ أسهل طريقةٍ لبيان هذا التشابك هي أن نكتفي بسرد أسماء بعض (وليس بالتأكيد كل) الفائزين بجائزة نوبل مؤخّرًا، ثم أن نجعل كلّ اسم يَقْدح في ذهننا منطقةً رمزيةً يُمْكن عدُّها بدورها منبرًا أو مثابةً لتدخّل ذلك الكاتب اللاحق في نقاشات تَدُور بعيدًا جدًا عن عالم الأدب: نادين غورديمر، كنزا يورو أوي، ديريك والكوت، وولي سوينكا، غابريال غارسيا ماركيز، أوكتافيو پاز، إيلي ڤيزل، برتراند راصِلْ، غونتر غراس، وريغوبرتا منشو، والعديد غيرهم.

ويصحّ أيضًا القولُ، كما أبانتْ پاسكال كازانوڤا في كتابها الغني **جمهورية الآداب العالمية**، إنّه يتأسّس الآن نظامٌ أدبي عولمي، تشكّلَ عبر المئة والخمسين سنة الأخيرة، هو نظام متكامل بنمط التأدب الخاص به ووتيرتِه وقانونِه ومداه الأممي وقِيَمه السُّوقية. وتعود فاعليةُ ذلك النظام إلى أنّه أَنْتج، على ما يبدو، أنماطًا من الكتّاب تحاجِجُ المؤلِّفةُ أنّها تنتمي إلى أصناف مختلفة بين مندمجين ومنشقّين وانتقاليين، وقد تفرَّد كلٌّ واحد منهم وصُنِّف في منظومةٍ بالغةِ الفعالية متعولمةٍ وشبهِ سُوقية وتتّجه محاججتُها الفعلية منحى البرهنة كيف قد يَذْهب هذا النظامُ القويُّ والكليُّ الحضور إلى حدّ استثارة لونٍ من الاستقلالية عنه، في حالات من أمثال حالتيْ جويس وبيكيت، وهما كاتبان لا يَخْضعان لقوانين الدولة أو النظام من حيث اللغة ولا التهجئة.

لكنْ على عظيم إعجابي بكتاب كازانوڤا، فإنّ إنجازه النهائي يبقى متناقضًا. إذ يبدو أنّها تقول إنّ الأدب بما هو نظام متعولم يَمْلك لونًا من الاستقلال الذاتي يضعه إلى حدّ كبير في ما يتعدّى الوقائعَ الإجمالية للمؤسّسات والخطابات السياسية. والحقّ أنّ هذه الفكرة تَمْلك بعضَ المعقولية النظرية عندما تَصُوغها الكاتبةُ في «مدى أدبي دولي» يتمتّع بقواعده التأويلية المخصوصة وبجدليّته المميزة بين العمل الفردي والجماعي، وبما يَحْمله من إشكاليات تتعلّق بالنزعات واللغات القومية. إلاّ أنّ الكاتبة لا تذهب إلى الحدّ الذي يصل إليه أدورنو إذ يقول (وأقول معه أيضًا، وهذا ما أنوي العودة إليه بإيجاز في الختام) إنّ أحد المعالم المميّزة للحداثة هو كيفية احتياج الحيّز الجمالي والحيّز الاجتماعي إلى البقاء ـ غالبًا عن وعي وفي مستوى عميق جدًا ـ في حالة من التوتّر المستدام. ثم إنّ المؤلّفة لا توظّف ما يكفي من الوقت لنقاش الوسائل التي بها يبقى الحيزُ الأدبي، أو قُل الكاتبَ نفسَه، متورِّطًا في السجالات الثقافية لفترةٍ ما بعد الحرب الباردة، بل غالبًا ما يكون مجنِّدًا لخدمة تلك السجالات الناجمة عن تغيّر المواقع السياسية التي تحدثتُ عنه آنفًا.

وهكذا ففي هذا الإطار الأوسع، لن يعود ثمة حاجةٌ إلىَ التمييز الأساسي بين كاتب ومثقف ما دام كلاهما فاعلاً في الحيّز العامّ الجديد الذي تهيمن عليه العولمةُ (والتي يَفْترض الجميعُ وجودَها بمن فيهم أنصارُ فتوى الخميني) فيجوز إذّاك نقاشُ وتحليلُ الدور العمومي للكتّاب والمثقفين مجتمعين. بعبارة أخرى، فإنّي سوف أركّز على ما هو مشترك بين الكتّاب والمثقفين إذ يتدخّلون في الحيّز العام. على أنّي لا أريد أن أتخلّى أبدًا عن إمكانية وجود ميدانٍ خارج العولمة، غير ممسوس بها، سوف أناقشها في نهاية البحث، ما دام همّي الأساسي منصبًا على دور الكاتب داخل النظام الحالي.

إسمحوا لي أن أسجّل ملاحظةً عن المميّزات التقنية لتدخُّل المثقفين في أيامنا هذه. من أجل استيعابٍ مكينٍ لوتيرة تسارع الاتصالات خلال العقد المنصرم، أودّ المقارنة بين إدراك جوناثان سويفت للتدخّل الفعّال في الحقل العام مطلعَ القرن الثامن عشر، وإدراكنا نحن لذلك التدخُّل. لا شكّ في أنّ سويفت كان كاتبَ الكرّاسات السِّجالية الأشدّ فتكًا في زمانه، وقد تمكّن ـ خلال حملته على دوق مالبوره، سنتيْ ١٧١٣ و١٧١٤ ـ من أن يرمي في الشارع خلال بضعة أيام بـ ١٥ ألف نسخة من كرّاسه **سلوك الحلفاء**. وقد أدّى ذلك إلى إسقاط الدوق من علياء مقامه الرفيع، لكنّه لم يغيِّر انطباعَ سويفت المتشائم (الذي عبّر عنه في كرّاسه **حكاية مغطس** سنة ١٦٩٤) بأنّ كتاباته في الأساس ظرفية لا تَصْلح إلاّ للوقت القصير الذي تروَّج خلاله. كان سويفت يفكّر طبعًا بالمخاصمة الجارية بين القدامى والمحْدثين، حيث كان كتّاب مبجّلون مثل هوميروس وهوراس يتمتّعون بالأقدمية والديمومة، على حساب شخصيات حديثة مثل درايدن بفضل العمر وأصالة الرأي. أما في زمن وسائل الإعلام الإلكترونية، فإنّ تلك الاعتبارات تَفْقد معظمَ ما لها من أهمية ما دام كلُّ مَنْ هو مزوَّد بكمبيوتر وبمدخلٍ لائق إلى الانترنت بات قادرًا على الوصول إلى أعداد من الناس تَفُوق الذين وصَل إليهم سويفت بآلاف الأضعاف؛ كما أنّه يستطيع أن يتطلّع إلى الاحتفاظ بما كتب بطريقة غير مسبوقة. إذن، يجب تعديلُ أفكارنا عن الأرشيف والخطاب تعديلاً جذريًا، إذ لم يعد في الإمكان اعتمادُ تعريفهما الذي حاوله فوكو بجهد جهيد منذ

ما لا يتجاوز عقديْن من الزمن وحتى عندما يَكْتب واحدُنا إلى صحيفة يومية أو دورية، فإنّ فُرَصَ الاستنساخ المضاعفة، كما فرص المحافظة على المكتوب إلى زمن غير محدود (نظريًا على الأقل) قد أطاحت حتى بفكرة الجمهور الفعلي في مقابل الجمهور الافتراضي. وما من شك في أنّ هذه الأمور قد حَدَّتْ من القدرات التي تَمْلكها الأنظمةُ على مراقبة كتابات تَعْتبرها خطيرةً، أو حتى على حظرها، علمًا (كما سوف أبيّن بعد حين) أنّه توجد وسائلُ لا تَخْلو من الفظاظة لحَجْرِ الوظيفة التحريرية للكتابة على الإنترنت أو للحدّ منها. فحتى أمدٍ ليس بالبعيد، كانت العربية السعودية وسورية، مثلاً، قد نجحتا في حَظْرِ لا الإنترنت فقط وإنّما محطّات التلفزيون الفضائية كذلك. أما الآن، فيتسامح البَلَدان مع مداخل محدودة إلى الانترنت، على الرغم من أنّهما، حفاظًا على سيطرتهما، قد تزوّدا بأجهزةٍ متطوّرةٍ سوف تكون تحريميةً ومانعةً على المدى الطويل.

وإذا كانت الأمور على هذه الحال، فإنّ مقالةً أكتبها في نيويورك لصحيفة بريطانية سيكون لها الحظُّ في أن تعود فتَظْهر على مواقع الانترنت أو عبر البريد الإلكتروني على شاشات الولايات المتحدة وأوروبا وباكستان والشرق الأوسط وأميركا اللاتينية وجنوب أفريقيا وأستراليا كذلك. ولا يَمْلك المؤلِّفون ولا الناشرون إلاّ سيطرةً ضعيفةً على ما يعاد نشرُه أو توزيعُه. فلمن يَكْتب الكاتب، إذن، إذا كان يَصْعب تحديدُ الجمهور بأيّ مقدار من الدقة؟ أعتقد أنّ معظم الكتّاب يركّزون على المخرج الحالي الذي كلّفهم بالنصّ، أو على القرّاء المفترضين الذين نودّ أن نتوجّه إليهم. والحقيقة أنّ فكرة الجماعة المتخيَّلة قد اكتسبتْ فجأةً بُعْدًا حَرْفيًا فعليًا وإنْ يكن افتراضيًا. بالتأكيد يحاول المرء تكوينَ جمهور من القرّاء وتشكيلَه واعتمادَه مرجعًا له، أكثرَ بكثير مما كان عليه الأمرُ أيامَ سويفت، عندما كان هذا يَفْترض على نحو طبيعي أنّ الشخصية المسماة «رجل الكنيسة الأنغليكانية» هي فعليًا جمهورُه الحقيقي الراسخ وإنْ يكن قليلَ العدد. وهذا ما اكتشفتُه عندما شرعتُ، منذ أزود من عشر سنوات، الكتابةَ في مطبوعة عربية من أجل جمهور عربي.

لذا علينا جميعًا أن نَعْمل الآن، تَحْدونا فكرةٌ تقول إنّنا على الأرجح واصلون إلى جماهير أوسع ممّا كنّا نتصوّره حتى منذ عقد من الزمن، مع أنّ حظوظنا في المحافظة على ذلك الجمهور قليلةٌ جدًا للسبب ذاته. ليس في الأمر مجردُ تفاؤل للإرادة، بل إنّه كامن في جوهر الكتابة الآن. وهذا ما يصعّب على الكتّاب كثيرًا الانطلاق من أنّ ثمة فرضيات مشتركةً بينهم وبين قرّائهم هي من قبيل تحصيل الحاصل، أو أن يتصوّروا أنّ إشاراتهم وتلميحاتهم يَسْهل فهمُها فورًا. والغريب أنّ الكتابة في ذلك المدى الجديد المتوسّع تنطوي أيضًا على نتيجة جزافية إلى أبعد حدّ هي سهولة إقدام الكاتب على البوح بأشياء قد تكون إمّا غامضةً كليًا أو كليةَ الشفافية أما إذا كان المرء يَمْتلك أدنى حس بالصنعة الفكرية أو السياسية (وسوف أتناول هذا الموضوع بعد لحظة) فسوف يختار الخيارَ الثاني بدلاً من الأول. ولكنّ النثر الشفّاف والبسيط والواضح يَحْمل تحدّياته المميزة، ما دام الخطرُ الداهمُ دومًا هو السُّقوط في الحياد المضلِّل للّغة الإنكليزية العالمية التي يَصْعُب تمييزُها عن نثر «السي. إن. إن» أو «يو. إس. آي توداي.» وهذه ورطة فعلية، إمّا لأنّها تنفّر القراءَ في آخر المطاف (والأخطر أنّها تُرْبِك الناشرين) وإما لأنّها تحاول كسبَ القراء بواسطة اعتماد أسلوب شديد الشبه بالبنية الذهنية التي يسعى الكاتبُ/المثقف ذاتُه إلى فضحها وإلقاءِ التحدي في وجهها. أقول لنفسي دومًا: يجب أن تتذكّر أنّه لا توجد لغةٌ أخرى في متناول اليد، وأنّ اللغة التي أستخدمها يجب أن تكون هي هي اللغةَ التي تستخدمها وزارةُ الخارجية أو يستخدمها رئيسُ الجمهورية عندما يقولان إنّهما يؤيّدان حقوقَ الإنسان وإنّهما يخوضان حربًا لـ «تحرير» العراق. فيتوجّب عليّ أن أكون قادرًا على استخدام اللغة ذاتها من أجل إعادة التحكُّم بالموضوع، واستردادِه، وإعادةِ وصله بالوقائع البالغة التعقيد التي بسّطها خصومي المثْقَلون بالامتيازات وخانوها أو عمدوا إلى الحطّ من قدرها أو إلى محوها كليًا. ويجب أن يكون قد بات بدهيًا، بعد هذا كلّه، أنّ المثقف الذي لا يقتصر دورُه على الدفاع عن مصالح سواه لا بدّ أن يكون له خصومٌ مسؤولون عمّا آلت إليه الأحوالُ، خصومٌ لا بدّ له من الاشتباك معهم اشتباكًا مباشرًا.

إنّ مصادر تمويل العديد من المنظمات غير الحكومية تجعلها قابلة للاستيعاب من قِبل «إمبريالية الفضيلة»

وإذا كان صحيحًا، وإنْ يكن مثبِّطًا للهمم، أنّ معظم المخارج الأساسية تسيطر عليها المصالحُ الجبّارة، ويتحكّم بها من ثم الخصومُ أنفسُهم الذي يقاومهم المثقفُ أو يهاجمهم، فالصحيح أيضًا أنّ طاقةً فكريةً ذاتَ قدرة على الحركة النسبية قابلةٌ لأن تستفيد من أنواع المنابر المتوافرة للاستخدام، بل هي قادرةٌ فعلاً على مضاعفة عددها. من هنا فإنّه يوجد، من جهة، ستُّ شركات جبّارة متعدّية الجنسيات يرأسها ستةُ رجال يسيطرون على تزويد العالم بالصور والأخبار. ولكنّه يوجد، من جهة أخرى، المثقفون المستقلّون الذين يشكّلون فعلاً جماعةً في طور التكوين، منفصل واحدهم عن الآخر جسديًا لكنّهم متصلون ـ بوشائج مختلفة ـ بعدد أكبر من جماعات الناشطين الذين تتجاهلهم وسائلُ الإعلام الرئيسية، وإنْ تكن تتوافر لديهم فعلاً أشكالٌ أخرى من «الآلات الخطابية» حسب تعبير سويفت. فكّروا بالمروحة المدهشة من

الفرص التي يوفّرها منبرُ المحاضرات والكرّاسات السجالية والإذاعات والصحف البديلة وصحف المناسبات والمقابلات والاحتفالات ومنابر الكنائس ومواقع الانترنت، لكي نسمّي البعضَ منها فقط صحيح أنّ عدم دعوة المرء إلى «نيوز آور» (ساعة الأخبار) على شبكة «بي بي. سي» أو على برنامج «نايت لاين» (رسالة المساء) على شبكة «آي. بي. سي.» يشكّل إعاقةً كبيرةً نسبيًا؛ وإنْ دُعي، فلن يُعْرَض عليه أكثرُ من دقيقة واحدةٍ عابرةٍ ومعزولة. لكنّ فرصًا أُخرى تتوافر لا على شكل لسعات صوتية،[1] ولكنْ على شكلٍ مهلٍ أطول من الوقت. من هنا فإنّ السرعة سلاحٌ ذو حدّين: إذ ثمة سرعةُ الأسلوب الشعاروي الاختزالي الذي هو السمة الرئيسية لخطاب الخبراء، وهو مباشر، سريع، صياغي، وبرغماتي شكلاً؛ وهناك سرعة الردّ والشكل التي يستطيع المثقفون ـ وبالتأكيد معظمُ المواطنين أيضًا ـ استغلالَها من أجل تقديم تعبيرات أشمل وأكمل عن وجهات النظر البديلة. أقصد أنّنا، بالإفادة مما هو متوافر على شاكلة منابر متعدّدة (أي المنابر التي لا تتوافر للشخصيات التلفزيونية أو الخبراء أو السياسيين المرشحين للانتخابات، أو تلك التي يتعالى عليها هؤلاء)، يُمْكن إطلاقُ نقاشاتٍ أكثر اتّساعًا.

لا يجوز الاستخفافُ بالطاقة التحريرية لذلك الوضع الجديد، ولا بالمخاطر التي تتهدّدُها. اسمحوا لي أن أقدّم مثالاً قويًا حديثًا على ما أعني. يوجد نحو أربعة ملايين لاجئ فلسطيني مبعثرين عبر أرجاء العالم الأربعة، يعيش عدد كبير منهم في مخيّمات كبيرة في لبنان (حيث وقعتْ مجزرةُ صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢) والأردن وسورية وغزّة والضفة الغربية المحتلتيْن من إسرائيل. في عام ١٩٩٩ قامت مجموعةٌ نشطةٌ من الشبّان اللاجئين المتعلمين في مخيّم الدهيشة قرب بيت لحم في الضفة الغربية بإنشاء «مركز إبداع،» ومن أبرز سماته مشروعُ «عَبْرَ الحدود» الذي كان طريقةً ثوريةً لربط اللاجئين بعضهم ببعض عبر شاشات الإنترنت ـ وهم المنفصلون جغرافيًا وسياسيًا بحواجزَ كأداء إنْ لم تكن مستحيلةَ التجاوز. ولأول مرة منذ أن تشتّت آباؤهم عام ١٩٤٨، بات باستطاعة الجيل الثاني من اللاجئين الفلسطينيين في بيروت أو عمّان أن يتّصلوا بنظراء لهم داخل فلسطين. وبعضُ ما أنجزه المساهمون في هذا المشروع كان مثيرًا للإعجاب حقًا. وهكذا مضى سكّانُ الدهيشة في زيارات إلى قراهم السابقة في فلسطين، وأخذوا يَصِفون مشاعرَهم ومشاهداتهم للاجئين الآخرين الذي سمعوا بتلك المواضع لكنّهم لم يستطيعوا إليها سبيلاً. وفي غضون أسابيع لا أكثر، انعقدتْ أواصرُ تضامن مدهش في وقتٍ باشرتْ فيه مفاوضاتُ الحلّ النهائي السيئةِ الطالع بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل في تناول قضيتي اللاجئين والعودة، اللتيْن شكّلتا ـ مع قضية القدس ـ صميمَ عملية السلام الواصلة إلى مأزقها. لذلك رأى بعضُ اللاجئين الفلسطينيين أنّ حضورَهم وإرادتَهم السياسييْن قد تجسّدا لأول مرة، مانحَيْن إياهم مكانةً جديدةً تختلف نوعيًا عن حالة التلقي المستكينة التي كانت قدَرَهم خلال نصف قرن من الزمن. وفي يوم ٢٦ آب ٢٠٠٠ دُمّرتْ كافةُ كمبيوترات الدهيشة في عمليةٍ من الاستباحة السياسية لم تَتْرك مجالاً للشكّ عند أحد في أنّ اللاجئين مقدَّرٌ أن يظلوا لاجئين، أيْ أنّه لا يجوز لهم أن يزعجوا الوضعَ القائم الذي اتكأ على افتراض صمتِهم خلال فترة طويلة لم يكن صعبًا وضعُ جردة بالمشتبَه بهم، وإنّما الصعُب هو أن نتخيّل أنّ أحدًا سوف يسمّي بالاسم أو أنّ أحدًا سوف يحاكَم في كل الأحوال، فقد باشَرَ سكّانُ الدهيشة فورًا العملَ على إعادة بناء «مركز إبداع،» ويبدو أنّهم نجحوا في ذلك إلى حدٍ ما.

إنّ الإجابة على سؤال «لماذا» في هذا السياق أو في سياقات أخرى مشابهة ـ يؤْثِر الأفرادُ والجماعاتُ التعبيرَ كتابةً أو كلامًا على الصمت ـ هي المعادلُ لتعيين ما يواجهه الكاتبُ أو المثقفُ في الحيّز العمومي. أعني أنّ وجود الساعين إلى العدالة الاجتماعية والمساواة السياسية، والذين يدركون (حسب تعبير آماريتا سين) أنّ الحرية يجب أن تتضمّن الحقّ في مروحة خيارات توفّر النموّ الثقافي والسياسي والفكري والاقتصادي، سوف يَدْفع المرءَ بالضرورة إلى الرغبة في التعبير بدلاً من التزام الصمت. ذلك هو الاصطلاح الوظيفي لمهمة المثقف ومن هنا فإنّ المثقف يقف في موقع يمكّن من صياغة تلك التوقُّعات والتمنيات، ومِنْ تنميتها.

إنّ كل تدخُّل تسلسلي يختصّ طبعًا بمناسبة مميزة، ويَفْترض وجودَ توافقٍ أو معرفةٍ أو نموذج فكري أو ممارسةٍ (نستطيع أن ننتقي مفهومَنا الأثيرَ الذي يعيّن المعيارَ المنطقي السائدَ والمقبول) خلال الحرب الأنكلو ـ أميركية ضدّ العراق، مثلاً، أو الانتخابات الوطنية في مصر والولايات المتحدة، أو بما يتعلّق بممارسات الهجرة في هذا البلد أو ذاك، أو بالبيئة في أفريقيا الغربية. ففي كل واحدٍ من هذه الأوضاع وفي العديد غيرها، تجد أنّ العلامة المميّزة للحقبة التي نعيشها هي النزوعُ إلى وجود سُنّة إعلامية ـ حكومية سائدة تَصْعب كثيرًا معاكستُها، على الرغم من أنّه يجب على المثقف أن يَفْترض أنّه يُمْكن البيانُ بوضوح عن وجود بدائل لها. وهكذا، فمن قبيل تكرار البدهيات القولُ إنّ كل وضع يجب أن يَلْقى تفسيرَه حسب معطياته

١ ـ Sound bite التي نترجمها هنا بـ «لسعة صوتية» هي تصريح موجز لشخصية سياسية أو أكاديمية، أو حتى إعلامية، يذاع خاصةً خلال نشرة الأخبار التلفزيونية، وعادةً ما يتكوّن من عبارة موجزةٍ آسرةٍ قويةِ الوقع وسهلةِ الحفظ (المترجم)

المخصوصة، ولكنْ (وأحاجج أنّ ما أقوله يسري على معظم الحالات) ينطوي كلُّ وضع أيضًا على نزاع بين منظومة قوية من المصالح من جهة، وبين مصالح أضعف قوةً، مهدَّدةٍ بالإحباط والصمت والاستيعاب أو حتى بالإبادة من قِبَل الأقوياء من جهة ثانية. وغنيٌّ عن القول إنّ المسؤولية بالنسبة إلى الثقف الأميركي أكبرُ، والفرصَ أوسعُ، والتحدي جدُّ صعب. فالولايات المتحدة هي في نهاية المطاف القوةُ الكونيةُ الوحيدة، تتدخّل أينما كان، وتَملك موارد للسيطرة كبيرةً جدًا، وإنْ تكن بعيدةً كلّ البعد عن أن تكون لامتناهيةً

وما دور المثقف، الجدلي والاعتراضي، إلاّ دورُ الكشف عن النزاع المشار إليه أعلاه، وجلاءِ معالمه، وأن يتحدّى ويَهْزم الصمتَ المفروضَ والاستكانةَ التطبيعيةَ اللذيْن تَفْرضهما السلطةُ الخفيةُ حيثما ومتى كان ذلك ممكنًا. ذلك أنّه يوجد توازٍ اجتماعي وفكري بين تلك الكتلة من المصالح الجماعية الطاغية وبين الخطاب المستخدَم لتبرير أواليّات تشغيل تلك المصالح وإخفائها أو التعميةِ عليها، فيما هو يَكْبح الاعتراضاتِ أو التحدّياتِ التي تواجهها.

عام ١٩٩٣، أصدر پيار بورديو وشركاؤه مؤلَّفًا جماعيًا بعنوان **البؤس في العالم** (تُرجم إلى الإنكليزية عام ١٩٩٩ بعنوان **وطأة العالم: العذاب الاجتماعي في المجتمع المعاصر**) كان الغرض منه إلزام السياسيين الانتباهَ إلى ما أخفاه التفاؤلُ المضلِّلُ في المجتمع الفرنسي. إنّ مثل هذا النوع من الكتب يَلْعب دورًا فكريًا سلبيًا نوعًا ما، هدفُه ـ حسب بورديو ـ «إنتاجُ ونشرُ أدواتِ دفاعٍ ضدّ السيطرة الرمزية التي تزداد اتكالاً على مرجعية العلم» أو على الخبرة أو على مناشدات الوحدة الوطنية أو العزّة الوطنية أو التاريخ أو التقاليد، من أجل إكراه الشعب على الخضوع. إنّ الهند والبرازيل مختلفان بداهةً عن بريطانيا والولايات المتحدة، غير أنّ هذه الفروق اللافتة في الثقافات والاقتصاديات لا يجوز إطلاقًا أن تَحْجب نقاطَ التشابه الفاقعة التي تُمْكن رؤيتُها في بعض التقنيات أو غالبًا في الحرمان والقمع اللذيْن يُجْبِران الشعبَ على التبعية الخانعة. وعليّ أن أضيف أيضًا أنْ لا حاجة إلى أن يقدِّم المرءُ نظريةً عويصةً وكاملةً للعدالة من أجل شنّ الحرب فكريًا على الظلم، ما دام ثمة مخزونٌ أمميٌّ عارمٌ من المعاهدات والبروتوكولات والمقرَّرات والشرْعات المعدّة لتَلتزمَ بها السلطاتُ الوطنيةُ إنْ هي شاءت ذلك. وفي الإطار ذاته، فإنّي أرفض الموقفَ البعدحداثي المغالي (كالذي يقفه ريتشارد رورتي[1]) إذ يمارس مصارعةَ الأشباح ضدّ كائن مُبْهَم يسمّيه بازدراءٍ «اليسارَ الأكاديمي») وهو موقف إذ يواجِه التطهيرَ العرقيّ أو إبادةَ الأجناس ـ كما كان يحصل في العراق في ظل نظام العقوبات ـ أو أيًا من شرور التعذيب والرقابة والمجاعة والجهل (ومعظمُها من صنع البشر لا من قبيل الأفعال الإلهية) يقول إنّ حقوق الإنسان أمورٌ ثقافية أو نحوية؛ فإذا ما خُرقتْ فإنّها لا تَمْلك المكانةَ ذاتَها التي يَمْنحها إياها تأسيسيون[2] (من أمثال كاتب هذه السطور) يعدّونها حقيقيةً مثلَها مثلَ أية أشياء حقيقية أخرى نقابلها في الحياة.

إنَّ المثقف الذي لا يقتصر دورُه على الدفاع عن مصالح سواه لا بدّ أن يكون له خصوم عليه أن يشتبك معهم

أعتقد أنّه يصحّ القولُ إنّ الخضوع اللاسياسي أو الجمالي، ومعه، أحيانًا، كافةُ أشكال الظفراوية [النزعة الانتصارية] وكره الأجانب، أو اللامبالاة والانهزامية، أحيانًا أخرى، كانت كلُّها مطلوبةً أساسًا منذ الستينيات من أجل إبعادِ ما تبقّى من رواسب الرغبة في المشاركة الديموقراطية (وهو ما يُسمّى أيضًا «خطرًا على الاستقرار») يُمْكن قراءة ذلك بوضوح كافٍ في **أزمة الديموقراطية**، المؤلّف الجماعيّ الموضوع بناءً على طلب «اللجنة الثلاثية»[3] قبل عقد من الزمن على انتهاء

---

١ ـ ريتشارد رورتي فيلسوف برغماتي أميركي معروف بنقده للمفهوم الحديث للفلسفة يصنِّف نفسَه في السياسة على أنّه «برجوازي ليبرالي» إصلاحي وُلد عام ١٩٣١ لوالديْن يساريّيْن انسحبا من الحزب الشيوعي الأميركي في الثلاثينيات درس في جامعتيْ شيكاغو ويال درّس في عدد من الجامعات بعد خدمة سنتين في الجيش وهو الآن أستاذ الأدب المقارن في جامعة ستانفورد أهمّ مؤلّفاته **الفلسفة ومرآة الطبيعة** (١٩٧٩) و**نتائج البرغماتية** (١٩٨٢) و**الطارئ والسخرية والتضامن** (١٩٨٩) (المترجم)

٢ ـ التأسيسيون تيّار فلسفي قليلُ النفوذ في القرن العشرين، يقوم على الاعتقاد بأنّ كلّ معرفة تنبني على نواة من المعتقدات الأساسية التي تبرِّر سائرَ المعتقدات يلتقي فيه تأثُّرٌ مشترك لفلسفة ديكارت العقلانية الأوروبية (المعارف الفطرية الأساسية) والتجريبية (الإحساس كمصدر للمعرفة ومقياس لها) (المترجم)

٣ ـ اللجنة الثلاثية تأسستْ عام ١٩٧٣ بمبادرة من البليونير الأميركي الشمالي دايڤيد روكفلر لتكون أشبهَ بحكومةِ ظلٍّ عالمية توفِّر تصوُّرات لقيادة العالم وإدارة اقتصادياته من القوى الصناعية الديموقراطية الثلاث أميركا الشمالية وأوروبا واليابان. تولّى زبغنيو برزنسكي (مسؤولُ الأمن القومي لاحقًا في إدارة الرئيس كارتر) إنشاءَ المؤسسة، وأدارها، وشَغل فيها منصبَ الأمين العام التنفيذي تتشكّل عضويةُ اللجنة من أكثر من ٣٠٠ من المصرفيين ورجال الأعمال المتفرّقين والسياسيين (أبرزُهم السياسي الجمهوري المحافظ باري غولدواطر) والإعلاميين (المترجم)

الحرب الباردة. وفيه تَلْقى المحاجّةَ القائلةَ إنّ المزيد من الديموقراطية يسيء إلى الحاكمية، بما هي ذلك المخزونُ من الاستكانة الذي يسهِّل على أوليغارشيات الخبراء الفنيين أو السياسيين ضَبْطَ الناس. وهكذا فالمرء يتعرّض دائمًا لمحاضرات خبراء مكرّسين يَشْرحون أنّ الحرية التي نريدها جميعًا تتطلّب إمّا تحريرَ الأسواق والخصخصةَ وإمّا شنَّ الحروب، وأنّ النظام العالمي الجديد ليس أقلّ من نهاية التاريخ، فيَضْعف لديه الميلُ إلى التصدي لذلك النظام بما يُشْبه المطالبَ الفردية أو حتى الجماعية. وقد تصدّى [نوام] تشومسكي لتلك الأعراض الباعثة على الشلل خلال السنوات العديدة الأخيرة.

اسمحوا لي أن أمثِّل، من تجربتي الشخصية في الولايات المتحدة اليوم، على مدى جبروت التحدّيات التي يواجهها الفردُ ومدى سهولة الانزلاق إلى الهمود. إذا كنتَ تشكو من مرض خطير، فإنّك لا تلبث أن تغوص في عالم من المنتجات الصيدلية المرتفعة الثمن إلى حدٍّ يثير الاستهجان، علمًا أنّ العديد منها لايزال في طور الاختبار ويتطلّب استخدامُه موافقةَ السلطات الفيدرالية. وحتى تلك الأدوية التي ليست تجريبيةً ولا حديثةً بنوع خاص (مثل الهورمونات والمضادّات للحيوية) فإنّها بمثابة منقذ للحياة يُرى إلى أسعارها الباهظة على أنّها ثمنٌ ضئيلٌ يُدْفع لقاءَ فاعليتها وكلّما ازداد المرءُ تأمُّلاً في الأمر، اصطدَمَ بمنطق الشركات القائل: قد يكون سعرُ إنتاج الأدوية منخفضًا (وهو عادة زهيد جدًا) إلاّ أنّ كلفة الأبحاث يجب استردادُها من خلال المبيعات لكنّك تكتشف أنّ معظم أكلاف الأبحاث وَرَدَ إلى الشركة على شكل مِنَح حكومية، وهذه بدورها واردةٌ من الضرائب التي يَدْفعها المواطنون أجمعين. وعندما تتصدّى لسوء استخدام الأموال العامة على شاكلة أسئلةٍ موجّهةٍ إلى مرشّح ذي تفكير تقدُّمي وواعدٍ مثل بيل برادلي،[1] تَفْهم فورًا لماذا لا يثير أولئك المرشّحون مثلَ تلك الأسئلة. فهم يتلقَّوْن تبرُّعاتٍ ضخمةً من «ميرك آند بريستول مايرز،»[2] وهو ما يَسْتبعد جدًا إقدامَهم على تحدّي داعميهم. وهكذا تستمرّ في الدفع وفي العيش على افتراض أنّك محظوظٌ بما فيه الكفاية لأنّ لك بوليصةَ تأمين، ولأنّ شركة التأمين تتوالى الدفع نيابةً عنك. ثم تكتشف أنّ محاسبي شركة التأمين هم الذين يقرّرون مَنْ يحقّ له الحصولُ على دواءٍ أو فحصٍ باهظِ الكلفة، وما هو المسموحُ وما هو غيرُ المسموح تناولُه من هذا وذلك، ولأيةِ مهلةٍ، وفي أيةِ ظروف؛ فإذ ذاك فقط تُدْرك أنّ شبكة أمانٍ بدائيةً من مثل شرعة حقيقية لحقوق المريض لن يصوِّت عليها الكونغرسُ نظرًا لأنّ شركات التأمين التي تحقّق معدّلاتٍ عاليةً جدًا من الأرباح تمارس الكولسةَ ضدّها بلا كلل.

باختصار، أرى نفسي مَسُوقًا إلى القول إنّه حتى المحاولات البطولية التي يُبْديها أمثالُ فريدريك جايمسون من أجل فهم النظام على المستوى النظري أو من أجل صياغةِ ما أسماه سمير أمين البدائلَ القائمةَ على «فكّ الارتباط»[3] مقدَّرٌ لها أن تُنْسَفَ من أساسها بسبب إهمالها النسبي للتدخُّل السياسيَ الراهن في الأوضاع الوجودية التي نعيشها نحن المواطنين ـ وهو تدخُّلٌ لا يَقْتصر على جانبه الشخصي وإنّما هو جزء مكوّن من حركة مناهضةٍ ومعارضةٍ واسعةِ النطاق. بدهي أنّنا كمثقفين نَحْمل جميعُنا فهمًا عمليًا ما أو ترسيمةً معيّنةً للنظام العالمي (ويعود الفضلُ في ذلك بالدرجة الأولى إلى مؤرِّخين عالميين أو إقليميين من أمثال إيمانوئيل ڤالرشتين وأنور عبد الملك وج. م. بلوط وجانيت أبو لغد وبيتر غران وعلي مزروي ووليام ماك نيل). على أنّه فقط من خلال المواجهة المباشرة مع ذاك النظام العالمي ـ على هذا الشكل أو ذلك من المدى الجغرافي أو المَوْقع أو الإشكالية المحدّدة ـ تخاض المبارزاتُ وربما يَنْعقد الفوزُ فيها أيضًا. يوجد مساق تأريخي باعثٌ على الإعجاب من أنواع الأشياء التي أعنيها في المقالات المجموعة في كتاب بروس روبنز **الشعور المتعولم: محنة الأممية** (١٩٩٩) وكتاب تيموثي برينان **في العالم كأنّك في بيتك: الكوزموبوليتية الآن!** (١٩٩٧) وكتاب نيل لازاريوس **القومية والممارسة الثقافية في العالم ما بعد الاستعماري** (١٩٩٩). وهي مؤلَّفات يشكّل نسيجُها الإقليمي المُحْكم المشبع والواعي لذاته بداياتِ تحسُّسٍ لعالمنا المعاصر لدى المثقفين النقديين (والمناضلين)، منظورًا إليه بما هو حقباتٌ أو حتى أجزاءٌ من صورة استعراضية أكبر يتمّ تجميعُها بواسطة أعمالهم وأعمال الآخرين من أمثالهم. ويقترح هؤلاء خريطةَ تجارب كانت مستحيلةَ الاستجلاء وربما غيرَ مرئيةٍ أصلاً لعقديْن خَلَوا. غير أنّ فترة ما بعد الإمبراطوريات التقليدية، ونهاية الحرب الباردة، وانهيار المعسكريْن الاشتراكي ومعسكر عدم الانحياز، وولادة الجدليات بين الشمال والجنوب في حقبة العولمة، تَجْعل من المستحيل عَزْلَ تلك التجارب عن الدراسة الثقافية أو عن تخوم الاختصاصات الإنسانية.

---

١ ـ بيل برادلي: من نجوم كرة السلّة الأميركية الشمالية، قبل أن يتحوّل إلى السياسة عضو ديموقراطي في مجلس شيوخ عن ولاية نيوجيرزي ابتداء من العام ١٩٧٨ ولثلاث دورات متتالية خاض الانتخابات الرئاسية الأولية لاختيار الحزب الديموقراطي مرشّحَه للرئاسيّات عام ١٩٩٩، لكنّه هُزم أمام آل غور، نائبِ الرئيس بيل كلنتون تبيّن أنّه تلقّى مساعدات مالية كبيرة لحملته الانتخابية من كبريات شركات الأدوية والإعلام. (المترجم)

٢ ـ واحدة من كبريات شركات الأدوية العالمية المتعدية الجنسية. (المترجم)

٣ ـ المقصود فكّ الارتباط اقتصاديًا، بالدرجة الأولى، بين الحاضرة الإمبريالية والبلد التابع (المترجم)

ذكرتُ عددًا قليلاً من الأسماء ليس فقط للإشارة إلى مدى أهمية مساهماتهم حسب اعتقادي، وإنّما أيضًا لاستخدامهم من أجل القفز مباشرةً إلى ميادين محدّدة للاهتمام الجمعي، حيث توجد إمكانيةُ «الابتكار الجمعي» إنْ كان لي أن أستشهد ببورديو للمرة الأخيرة. وهو يواصل قائلاً:

«وهكذا فإنّ بنيان الفكر النقدي بأكمله بحاجة ماسة إلى إعادة بناء نقدية. ولا يُمْكن الاضطلاعُ بذلك الجهد، كما كان البعضُ يظنّ في الماضي، على يد مثقف كبير واحد، هو بمثابة شيخ مفكّرين يتمتّع بموارد فريدة لفكره المتميّز، أو بواسطة ناطقين رسميين باسم جماعة أو مؤسّسة يُفْترض أنّها تتكلّم باسم أولئك الذين لا صوت أو نقابة أو حزب لهم أو أيّ شيء من هذا القبيل. هنا يستطيع المثقف الجمعي [وهو الاسم الذي يُطْلقه بورديو على أفراد يشكّل جماعُ أبحاثهم ومشاركتِهم في مواضيع بحثية مشتركة نوعًا من وحدة تعاونية متخصِّصة ـ إ. س.] أن يلعب دورَه الذي لا يعوَّض، بالمساعدة على توفير ظروف اجتماعية من أجل الإنتاج الجمعي للطوباويات الواقعية.»

إنّ جوابي على هذا هو التشديد على غياب أيّ برنامج علمي أو مخطّط توجيهي أو نظرية كبرى لما يستطيع المثقفون القيامَ به وعلى الافتقار راهنًا لأية غائية طوباوية يمكن وصفُ التاريخ البشري بأنّه متّجهٌ إليها لذا يخترع المرءُ الأهداف خطفًا ـ بالمعنى الحرفي للمفردة اللاتينية inventio التي يستخدمها علماءُ البلاغة للتشديد على معنى «إعادة العثور على،» أو «إعادة تجميع إنجازات ماضية» في مقابل الاستخدام الرومنطيقي للاختراع بما هو شيء تَخْلقه مِنْ لا شيء. وهذا يعني أنّ المرء يستطيع افتراضَ تحقيقِ وضعِ أفضل تأسيسًا على وقائع تاريخية واجتماعية معلومة. وهذا ما يوفّر للإنجازات الفكرية على جبهات عديدة، وفي أمكنة كثيرة، تنوُّعًا في الأساليب يمكّنها من الاستمرار في تشغيل حسِّ المعارضة وحسِّ المشاركة الملتزمة، التي تحدثتُ عنهما منذ قليل، في آن معًا. لذلك تستطيع السينما والتصويرُ وحتى الموسيقى، بالإضافة إلى كلّ الفنون الكتابية، أن تكون بمثابة الأوجه المتعدّدة لذلك النشاط. إنّ جزءًا ممّا نمارسه نحن المثقفين لا يَقْتصر على تعيين الحالة الراهنة وإنّما يَشْمل أيضًا استكشافَ إمكانات التدخّل النشط، أمارَسْنا هذا النشاط بأنفسنا أمِ اعترفْنا به لدى آخرين سبَقونا أو لايزالون يمارسونه. ذلك هو دور المثقف بما هو رقيب.

إنّ النزعة البلدية من النمط القديم ـ كمثْل أن يكون المرءُ خبيرًا أدبيًا اختصاصُه إنكلترا مطلعَ القرن السابع عشر ـ آخذةٌ في إلغاء نفسها بنفسها، وتبدو، بصراحة، عديمةَ الإثارة وَخَصيّة من غيرِ ما مبرِّر. يجب الافتراضُ هنا أنّه على الرغم من أنّ المرء قد لا يستطيع أن يفعل كلّ شيء أو أن يَعْلم كلّ شيء، إلاّ أنّه يجب أن يكون ممكنًا على الدوام ليس فقط استكشافُ عناصرِ نضالٍ أو توتّرٍ أو مشكلةٍ في متناول اليد يُمْكن جلاؤها جدليًا، وإنّما أيضًا الاستشعارُ بأنّ ثمة شعبًا آخر له حصةٌ مشابهة وعملٌ مشابهٌ في مشروع مشترك. وقد عثرتُ على توازٍ مُوحٍ على نحوٍ لامعٍ لما أعنيه في كتاب آدم فيليبس الأخير **ديدانُ داروين**، حيثُ أبان اهتمامُ داروين الطويلُ بالدودة السافلة قدراتها على التعبير عن طاقة الطبيعة على التنوُّع والتصميم، دون أن يكون بمقدورنا معاينةُ هاتيْن الظاهرتيْن بتمامهما بالضرورة. فإذا به ـ داروين ـ في أبحاثه عن الديدان قد استبدل «أسطورة خليقة بأسطورةٍ ديمومةٍ زمنية.»

ما نحتاجه الآن هو كتابات تتمتّع بمقدار من الصحو لتوضيح تعددُ التاريخ وتعقُّدِه

هل توجد طريقةٌ غيرُ تافهة للتعميم عن الكيفية التي تخاض بها تلك النضالاتُ الآن وتتشكّل؟ سوف أقتصر على قول القليل عن ثلاثة فقط من تلك النضالات، وكلُّها مؤهّلة بعمق للتدخُّل والجلاء الفكرييْن. النضال الأول هو منعُ اضمحلال الماضي واستباقُ عمليات إخفائه. ففي إزاء سرعة التغيّرات، وإعادة صياغة التقاليد، وتقديم تبسيطاتٍ للتاريخ على الطريقة الباودلرية،[1] يقع هذا النضالُ في صميم النزاع الذي يصفه بنجامين باربر، وإنْ على نحوٍ تعميمي جارف، بأنّه «جهاد ضد عالَم ماكْ.» إنّ دور المثقف هو أن يقدِّم سرديات بديلةً ومنظوراتٍ للتاريخ مغايرةً لتلك التي يقدِّمها مقاتلون نيابةً عن الذاكرة الرسمية وعن الهوية والرسالة القوميتين منذ نيتشه، على الأقلّ، يُنظر إلى كتابة التاريخ وتراكمات الذاكرة، بطرق مختلفة، على أنّها المرتكزات الأساسية للسلطة؛ فهي تقود استراتيجياتِها وتَرْسم الخطوطَ البيانية لتقدّمها. أنظرْ، مثلاً، إلى الاستغلال المروِّع لعذابات الماضي كما يصفها توم سيغيف وبيتر نوڤيك ونورمان فنكلستين، في رواياتهم عن استخدامات «المحرقة.» أو، إذا شئنا البقاءَ في حومة إعادة

---

١ ـ طوماس باودلر (١٧٥٤ ـ ١٨٢٥) طبيبٌ وأديبٌ بريطاني عُرف بكتابه **شكسپير العائلي** (١٨١٨) حيث نَقّح وشذّب مسرحيات شكسپير بحيث باتت تليق، حسب رأيه، بأن يقرأها أب لعائلته بلا خوف من أن يسيء إلى حساسياتهم أو يخرِّبَ عقولَهم صار اسمه رديفًا للتنقيح التبسيطي في النصوص الأدبية أو سواها، بالمعنى السلبي للعبارة (المترجم)

الاعتبار والتعويض التاريخيّين، فانظرْ إلى أعمال التشويه وتقطيع الأوصال وإعدام الذاكرة وسائر الارتكابات البغيضة بحقّ تجارب تاريخية قيّمة لا تَمْلك فئاتٍ ضغطٍ تتمتع بمقدارٍ من القوة في الحاضر الدفاع عنها، فتستحقّ ـ من ثم ـ النبذَ أو الاستصغار. ما نحتاجه الآن هو كتابات متحرِّرة من الثمالة، وتتمتّع بمقدار من الصحو، لتوضيح تعدُّد وتعقُّد التاريخ، دون السماح لأحد بأن يَسْتنتج أنّه ـ التاريخ ـ يتقدّم إلى أمام، على نحو يُغْفل العاملَ الذاتي المشخصن، وفق قوانين تتحكّم بها القدرةُ الإلهية أو الأقوياء.

النضال الثاني هو من أجل بناءِ حقولِ تعايشٍ بدلاً من ميادينِ قتالٍ بواسطة الجهد الفكري. ثمة دروس عظيمة يُمْكن تعلُّمُها من تجارب التحرُّر من الاستعمار. فكائنًا ما كان نبلُ الأهداف التحريرية، فإنّها لم تَمْنع، في معظم الأحوال، من انبثاق بدائل قومية قمعية للأنظمة الكولونيالية، وإنّ المسارَ نفسَه وقع على الفور تقريبًا في أسار الحرب الباردة على الرغم من الفنون البلاغية لحركة عدم الانحياز. والأفدح من ذلك أنّ الأهداف التحريرية قد تقزّمتْ بل تسفّهتْ على يد صناعةٍ أكاديميةٍ صغيرةٍ حوّلتْها ببساطة إلى مبارزة غامضة بين خصوم ملتبسين. ففي المبارزات العديدة حول العدالة وحقوق الإنسان التي يَشْعر العديدُ منّا أنّه منخرط فيها، ثمة حاجةٌ إلى مكوّنٍ لالتزامنا يشدِّد على ضرورة إعادة توزيع الموارد وينادي بلزوم النظرية في وجه التراكم الهائل في القوة ورأس المال الذي يشوِّه الحياةَ الإنسانية أيّما تشويه.

لا يُمْكن للسلام أن يوجد من دون مساواة؛ تلك قيمة فكرية بحاجة ماسة إلى أن نكرِّرَها ونشرحَها ونعززَها. أما إغراء الكلمة ذاتها ـ السلام ـ فمردُّه إحاطتُها، بل تشبُّعُها، بممالقات التأييد، والمديح غير القابل للجدل والإسناد العاطفي. وتتولى وسائلُ الإعلامِ الدولية ـ كما في الحرب غير الشرعية ضدّ العراق ـ التضخيمَ والتزويقَ غيرَ النقدي، ونَقْلَ كلِّ هذا دونما تساؤل إلى جماهير واسعة ترى إلى السِّلم والحرب على أنّهما مشاهدُ للمتعة والاستهلاك المباشر. يتطلّب الأمر من الجرأة والجهد والمعرفة ـ من أجل تذويب كلمات مثل «حرب» و«سلام» إلى عناصرها المكوِّنة، واستعادةِ ما أُسقط من عمليات السلام التي تَحَكّم بها الأقوياءُ، ومن ثم إرجاع تلك الراهنية المفقودة إلى مكانها في مركز الأشياء ـ أكثرَ بكثير مما تتطلّبه كتابةُ مقالاتٍ وصفيةٍ موجّهةٍ إلى «الليبراليين» على طريقة ميكائيل إغناتييف تحرِّض على المزيد من الدمار والموت لمدنيين بعيدين، تحت راية «الإمبريالية الحميدة.» إنّ المثقف ما هو إلاّ ذاكرةٌ مضادّة، بمعنى ما، تَمْلك خطابَها المعاكسَ المخصوصَ الذي يَمْنع الضميرَ من أن يُشيح بنظره أو أن يستسلم للنوم. وخيرُ علاج هنا هو أن تتخيّل الشخصَ الذي تناقش ـ في هذه الحالة الشخص الذي سوف تَنْهمر عليه القذائفُ ـ وهو يقرأ بحضورك، على ما قاله الدكتور جونسون.

ومع ذلك، فكما أنّ التاريخ لا ينتهي ولا يكتمل أبدًا، كذلك الأمر بالنسبة إلى بعض التعاديات الجدلية التي يَستحيل مصالحتُها، أو تجاوُزها، بل إنّها ليست قابلةً حقًا لأن تُطوى في نوع من التوليفة الأرقى هي بلا ريب أنبل.

أما مثالي الثالث، والأقرب إلى الدار، إذا جاز التعبير، فهو الصراعُ على فلسطين. فقد كنتُ دائمًا أعتقد أنّه لا يُمْكن حلُّه فعلاً بواسطة إعادة ترتيب جغرافية تقنية، تَسْمح للفلسطينيين، المقتَلَعين والمحرومين، بالحقّ (كذا) في أن يعيشوا، أشبهَ بالبوّابين في نهاية المطاف، على حوالى ٢٠ في المئة من أرضهم المطوّقة من قِبل إسرائيل والمعتمِدة كليًا عليها. ومن جهة أخرى، ليس مقبولاً أخلاقيًا مطالبةُ الإسرائيليين بأن يَنْسحبوا من كامل فلسطين السابقة، وهي الآن إسرائيل، فيصيروا لاجئين مجددًا، مثلما هم الفلسطينيون الآن. لطالما نقّبتُ بحثًا عن مخرج من ذلك المأزق، فلم أَعْثر عليه؛ ذلك أنّنا لسنا إزاء قضية سهلة من قضايا «حق في مواجهة حق» وليس من الحقّ أبدًا حرمانُ شعب بأكمله من أرضه وتراثه؛ فاليهود هم أيضًا ما قد أسميتُه «اجتماع ألم،» يَحْملون مأساةً عظيمةً. غير أنّي، خلافًا لعالم الاجتماع الإسرائيلي زئيف سترنهل، الذي أَفْصح عن الفكرة ذاتَ مرة بحضوري، لا أستطيع الموافقةَ على أنّ احتلال فلسطين كان ضروريًا. إنّ مجرد التفكير بالأمر هو إهانةٌ للألم الفلسطيني الحقيقي، وهو مأساوي أيضًا على طريقته الخاصة.

إنّ التجارب المتقاطعة وغير القابلة للمصالحة، في آن، تتطلّب من المثقف جرأةَ القول: هذا ما نحن شهودٌ عليه، بالطريقة ذاتِها تقريبًا التي أصرّ فيها أدورنو، على امتداد أعماله عن الموسيقى، على أنّ الموسيقى الحديثة لا يُمْكن مصالحتُها مع المجتمع الذي أنجبها؛ ذلك أنّ الموسيقى ـ في مخاتلتها الكثيفة، بل الباعثةِ على اليأس، من حيث شكلها ومضمونها ـ تستطيع أن تلعب دورَ الشاهد الصامت على اللانسانية المحيطة بنا. فكلّ محاولة لاستيعاب العمل الموسيقي الفردي داخل إطاره الاجتماعي إنّما هو الخطأ عينه، في رأي أدورنو.

أختم بفكرة أنّ المنزل الموقّت للمثقف هو حومة فن متطلّب، مقاوم، غير مساوم، لا يُمْكن للأسف أن يَنْسحب إليه المرءُ ولا أن يبحث فيه عن حلول. على أنّه فقط في حقل النفي الهشّ ذاك يستطيع المرء أن يَقْبض حقًا على صعوبةِ ما لا يُمْكن اكتناهُه وأن يُقْدِم من ثم على محاولة اكتناهه، على الرغم من ذلك.

نيويورك